إِغْرَاءُ الأَعَالِي

تأليف :
محمد سعيد الريحاني

رسوم :
زكرياء التمالح

هذا العمل أنجز بدعم من وزارة الثقافة

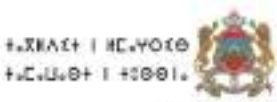

ISBN : 978-9954-39-495-3
Dépôt Légal : 2017MO0422

التصميم الفني : إكرام التمالة
صورة الغلاف : إكرام التمالة

Imprimerie : 4print

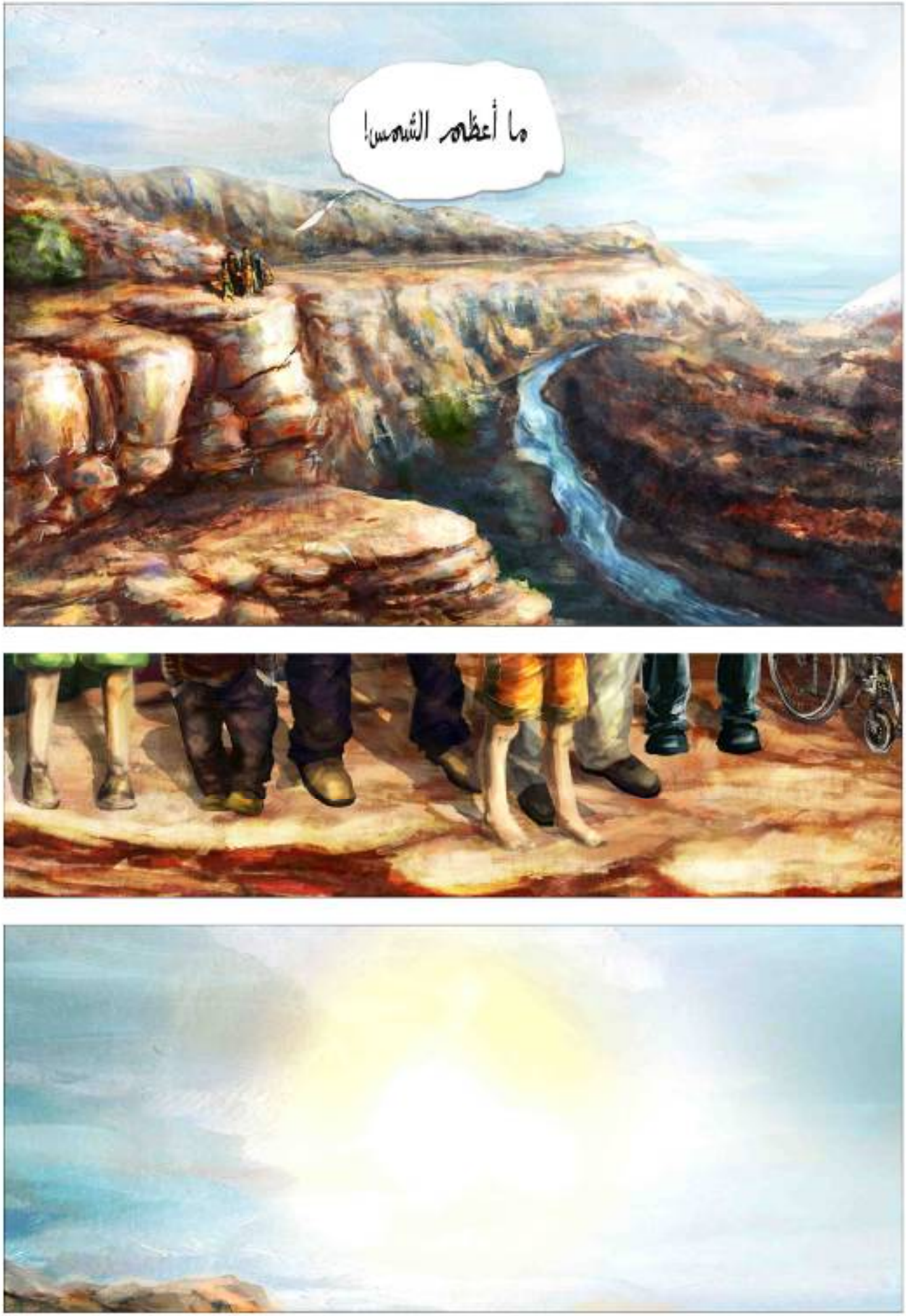
ما أعظم الشمس!

هل تستطيع تخيل هذا الكوكب الصاخب من دون شمس؟!
نعم، أستطيع..

كيف سيكون، إذن؟
لن يكون صاخباً البتة.

أتخيل وكأننا جميعاً على ظهر سفينة تائهة في الأفق أنهكتها الرياح وتقاذفتها الأمواج ونحن على متنها نخبط خبط عشواء على أمل أن يلوح شعاع منارتنا و نشرق مع شمسنا فنزداد صخباً.

هي شمس واحدة في السماء. تغدو و تروح. تغيب و تشرق. تجري قدماً فنتبعها لاهثين من دون توقف أو تراجع. معها، تشرق أحلامنا و تغيب ذكرياتنا. إنها الشمس، مجبرة أعتى المتشائمين على التشبث بخيط أشعتها الذي قد يحمي فيهم دوافع للاستمرار.

لِكُلِّ سَمَاءٍ

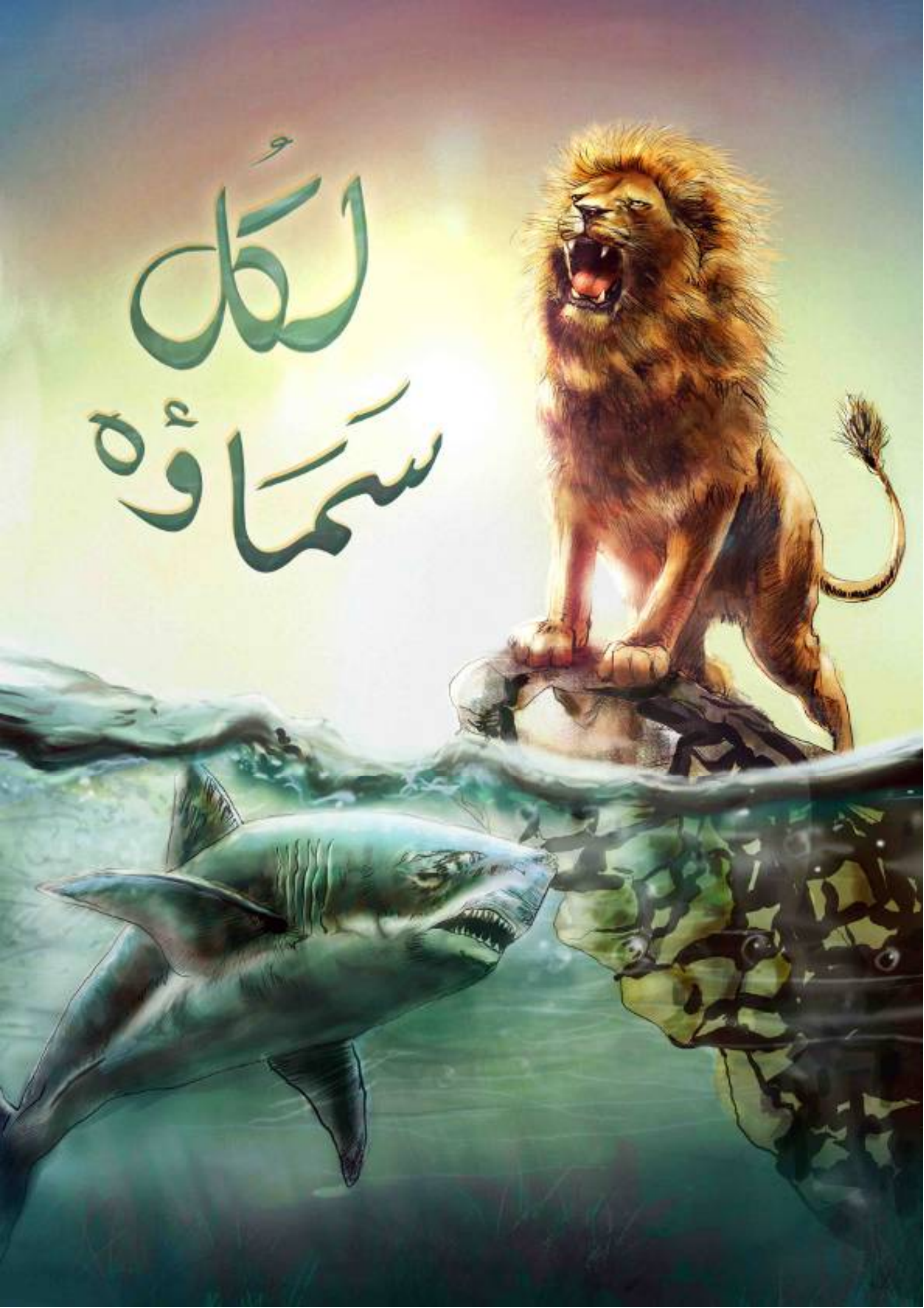

أبي، إذن هنا
تعيش القروش ؟
نعم،
يا عزيزي،
ولكن بعيدا
من هنا.
هي تفضل
المياه
الدافئة
في أعالي
البحار.
هي قوية!

نعم، يا بني
القرش هو ملك
البحر ...

وهنا في البر،
من ملك البر؟

السبع، يا ولدي. السبع
هو ملك البر والغاب.

السبع

ومن الأقوى،
السبع أم القرش؟

وكيف لأحدهما أن يتفوق
على الآخر وكل يعيش في
مملكته؟ السبع في الغاب
والقرش في البحر.

وحتى إذا ما حاول الواحد منهما أن يغير على الآخر مات اختناقا إما على التراب، إذا كان قرشا، أو داخل الماء، إذا كان سبعا.

الحياة.

الجبال والهضاب والوديان
والأغوار والأشجار والأحجار
والنباتات والضياء والظلام...

إن الحياة هنا، في البر،
تقابلها حياة موازية في البحر.
وحيوانات البر تقابلها
كذلك أسماك في البحر.

وصل تنسع كل هذه
التضاريس والأحياء و
الأشياء داخل البحر؟

ما يوجد في البحر أكبر
حجما وأكثر تنوعا
مما يوجد في البر.

ولكن سطح البحر سطح
هادئ؛ بلا تنوعات ولا
رؤوس تطل ولا ذيول
تخبط في الماء!!!

لايغرنك السطح،
ياولدي.

هل ترى تلك القبة الزرقاء الهادئة؟

السماء، يا أبي؟

تلك سماؤنا و سماء السباع. أما سطح البحر فهو سماء الأسماك و القروش.

إذا خرج البحريون عن سطح البحر، سمائهم، اختنقوا و ماتوا. و إذا نحن البريون أطللنا برؤوسنا خارج سماءنا، احترقنا و متنا!

لكل، يا ولدي، سماؤه. هناك أشكال من العوالم و أشكال من المخلوقات و أشكال من طرق التفكير و أشكال من سبل العيش... هناك اختلافات لانهائية في هذه الحياة. و هذه الاختلافات هي سر الحياة الكبير و ذنب غناها الأكبر. و لولاها ما كنا لنستمتع بهذه اللحظة و بهذه الوقفة على هذا الجمال الذي سيجعلنا نعود للبيت أكثر تجددا و أكثر سعادة.

الحياة رائعة، يا أبي!

أحلم أن أغوص كالقرش
في أعماق البحار والمحيطات.
حتما ستكون لأهل البحر
شمامس.

أما أنا فأحلم أن أغوص
كالصقر في آفاق السماء.
أصول و أجول كما يحلو
لي...

رائعة هي الحياة من عل.
روعة مطلقة لا يفسدها
غير فعائل البشر.

وما أدراك؟
هل سبق لك أن
كنت طائرا؟.

نعم
...

خرمن
عم فور

أمس، حلمتني عصفورا واقفا على الأسلاك العالية، استحم تحت الشمس وأفلي ريشي من الطفيليات.

حتى إذا تزودت من الشمس بالحرارة اللازمة...

غادرت الأسلاك وحلقت في الأعالي لتصير الدنيا تحتي خريطة صغيرة..

تجري فيها الأنهار صنا وتنبسط فيها السهول صناك وترتفع فيها الجبال صنالك بين الغمام...

أمس، حلمتني عصفورا طليقا آكل مما شئت من الحقول ..

... وأتسلى بسذاجات البشر الذين يعتقدون بأن الأرض خلقت لهم وحدهم والماء لهم وحدهم والزرع لهم وحدهم..

وقد نصبوا التخويف من الاقتراب من الحقول "فزاعات" من عيدان وأقمشة!

كنت أقف على أعواد "الفزاعات" وانقر سنابل الزرع وأتسلى بفرق حراسة الحقل تجري نحوي بجنون وتدوس السنابل التي جاءت خصيصا لحراستها من العابثين فقط لإبعاد عصفور صغير عن غدائه.

كنت ألزم مكاني فوق "الفزاعة" حتى إذا تقلصت المسافة بيني وبين الهاجمين طرت فوق رؤوسهم نحو فزاعة أخرى وراء ظهورهم لإتمام غذائي.

تساءلت، بمنطق العصافير:
- ترى لو كان للبشر أجنحة، لصادروا السماء والهواء أيضا!

حتى وهم بلا أجنحة،
يتفنن البشر في نصب
الفخاخ لعصافير قد
ينتبهون لوقوعها في
الشراك وقد لا ينتبهون
لذلك.

قد يشوون لحمها و يأكلونه وقد يعافونه ويرمونه،
ومع ذلك ينصبون للعصافير الفخاخ..
ويتفاخرون بعدد الضحايا من صغار
الطيور القتيلة بين أيديهم.

تساءلت كثيرا وبراءة العصافير دائما:
- لو قدرت للبشر الحياة بالأجنحة ومعاينة سلوكهم من عل، ترى هل كانوا سيتغيرون؟

الرؤية من فوق مختلفة تماما،
من فوق، يتراءى البشر بحجم أعواد الثقاب

يجرون وهم يعتقدون أنهم يطيرون، يتكلمون وهم يعتقدون أنهم يطربون، يضحكون وهم يعتقدون أنهم سعداء.

يلتصقون بالأرض وهم يعتقدون أنهم اختاروا الحياة مشيا على الأقدام...

لو قدر للبشر تجربة الحياة في الأعالي، لأدركوا أن القاعدة هي الحياة بالأجنحة ولتذكروا العقاب الذي طالهم عند بداية الخليقة..

منذ ذلك اليوم السحيق، تعلموا نصب الفخاخ ومعاداة العصافير..

لو قدر للبشر تجربة الحياة في الأعالي لتخلصوا من سذاجات التفكير الأرضي. فحين تصير طائرا، لا يبقى ثمة عائق يحد من انطلاقك. حين تكون طائرا فأنت بالضرورة حر طليق.

العطش؟
العطش ليس مشكلة بالنسبة للعصافير فقطرة ماء تكفي.

الجوع؟
حبة زرع تكفي.

السكن؟
كل أغصان الشجر تتطابق مع معايير السكن اللائق.

"مدرسة السماء" مختلفة تماما عن "مدرسة الأرض". مدرسة الأرض تجزيئية يقضي فيها الإنسان معظم حياته يجمع الأجزاء والتفاصيل ليفهم بعد مرور جيل من الزمن كيف تسير الأمور. أما مدرسة السماء فتتجب عصافيرها عارفة بمجرى الأمور وتبقي ليوم فرصة الاستمتاع بالتفاصيل...

حين أدركني الصباح مع رنين المنبه قرب سريري . حاولت جاهدا أن أحافظ على خفق أجنحتي في دماغي وعلى خفق الحرية في فؤادي وعلى دبيب وجدان العصفور..
.. الذي كنته في حلمي ولو لثوان كي استأنس بهما حتى إذا ما احتجتهما لاحقا في لحظات الضيق شغلتهما سعيا للخلاص.

كان الإحساس رائعا، أروع من أجنحة الحلم ذاتها

..أن تتحرك الأجنحة والمراوح و
المحركات في الصباح الباكر داخل دماغك

..فتبدو وأنت تتقدم رأسا في
الفضاء الفسيح اللامحدود..

.. كمكوك أسطوري يتجه نحو كواكب أخرى، نحو شموس أخرى، نحو مجرات أخرى...

مستعد لأقدم أغلى ما أملك مقابل أن أعيش الحلم ولو لساعة من الزمن.

أنصحك أن تتخلى عن حلمك.

دعه يحاول. قد يفلح في الأمر.
لن يفلح حتى وإن قدم حياته فداء لهذا الحلم اللعين.

أنا أعني ما أقول. لن تقدم أكثر مما قدمت في سبيل هذا البراء
....

وطن
العصافير
المحبطة

تذكرني كثيرا
بأخيك، عباس...

هاه..

أكان عباس يعشق العصافير أيضا ؟
حتى الجنون ...

كان يقضي معظم أوقاته في مكانك هذا، وحيدا، يرقب صفاء السماء ويتابع رقص العصافير وهي تعلو وتبتعد

كان مغرما حد اليوس بالعصافير، سألني مرة عن لغة تواصلها.

فقلت أنها تغني وترقرق، وكم أعجبته الفكرة !

كم هو رائع، يا أبي،
الغناء عوض الكلام !...

والغذاء ؟!

العصافير لا تعرف
مشاكل غذاء

هي تغنيات في أي وقت
شاءت ومن أي حقل في
الدنيا لأن العالم يصبح
أصغر وفي المتناول حين
تطير.

ولذلك فهي تختار أماكن
إقامتها، ومنها ما يختار
الحياة فقط في الفصول
الجميلة مهاجرا من شمال
الدنيا إلى جنوبها بحثا عن
الشمس والغذاء...

لكن عباس فاجأني ذات مرة
هل يمكنني أن أطير، يا أبي ؟؟
لا..
الأجداد فوتوا علينا فرصة الطيران.
مالي والأجداد، يا أبي ؟
أنا أسأل عن نفسي..
فأضطر لعقلنة الأمور..

لن تطير..
سأطير..

سألصق ريشا على
ذراعي وأطير ...

لقد جربت قبله ما كان هو بصدد
التفكير فيه. أنا أيضا كنت طفلا مثله
وحاولت الطيران من حافة هذا السطح
غير مبال بحشد الجيران في الشارع
تحتي، ممسكين بالملاءات من أطرافها
وهم يناشدونني ألا أنتحر :

لا لن أنتحر..

لا تفعل
لا تنتحر

بل سأطييير..

لكنني ارتميت من حيث تقف أنت الآن. إنما عوض أن أطير، سقطت عليهم بقوة حتى تمزقت الملاءات التي كانوا ينشرونها لي فارتطمت بصلابة الأرض وتكسرت ساقاي.

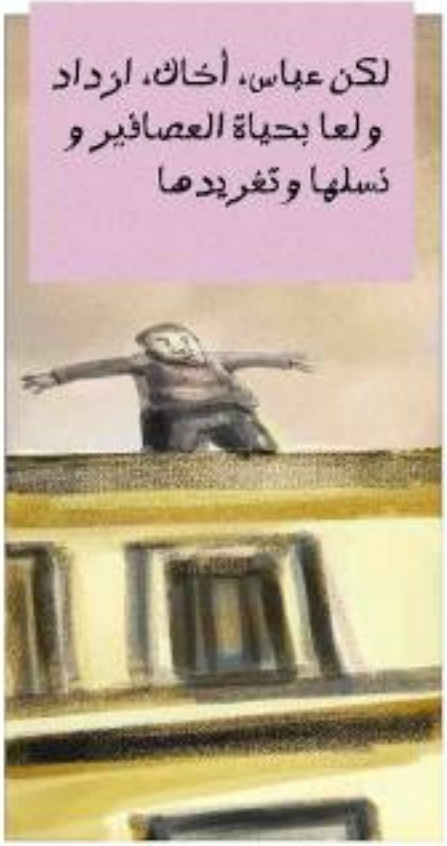

حيث احتشد الجيران لتضميد الجمجمة المشطورة للذي حاول الطيران. تهورا...

لا تخف، يا أبي،
لن أفعل مثلك ولا مثل
عباس...

سأطير، يا أبي،
وسأنجح في ذلك.

صدمة القزم

كان صغار الأطفال، لقصر قامته، يعانقونه ويلاعبونه ويعاملونه كواحد من جيلهم. كان يلعب مع كل جيل جديد من أطفال الحي. الأطفال يكبرون وهو يلزم مكانه ينتظر الجيل القادم من صغار الصبية ليكبر واكي يلعب معهم. ويؤجل وحدته وقلقه إلى ما بعد مغيب الشمس حيث تجلسه أمه على ركبتيها لتحدثه عن أبيه الراحل الذي كان "رجلا عظيما". عظمة كان يقرنها دوما بالقامة.

ولكنني أريد أن أكبر مثل أصحابي رويدا رويدا..

..وأعاشرهم في مغامراتهم، لا أريد أن أبقى طفلا لثلاثين عاما..

..ثم التحق بهم دون سابق إشعار...

لا تحزن، يا ولدي، لا تحزن...

وتمضي السنون وهو لازم مكانه وأجيال أصدقائه يكبرون ويرحلون...

الرؤية الفنية

إنتباه.. اليوم سندرس مقاييس جسم الإنسان..

نسب الجسم العادي هي سبعة و نصف بحساب الكف كوحدة قياس.

أما الأقزام... فليست لهم نسب يعتد بها...

أق..أق.. أقزاااام..هل أأ أنا!..

هل أنا قزم؟ هل سابقى هكذا؟!
...

بعد العودة إلى المنزل..

أمي..أريد رؤية صورة أبي العظيم الآن..نعم الآن وفوراً..

صباح

هون عليك
يا حبيبي..

أين أبي العظيم،
يا أمي؟

العظمة ليست في
الطول والحجم، يا بني
العظمة في العطاء
والحضور!...
أين سأحضر
يومك القادم
ومالذا سأعطي
له...

الأجسام، يا ولدي،
هي مجرد "لباس عمل"
أو "وزرة".

الأجسام ليست غاية،
إنها وسيلة لأداء مهمة
في هذه الحياة.

الأجسام، يا ولدي،
هي مجرد "لباس عمل" أو "وزرة". الأجسام
ليست غاية، إنها وسيلة لأداء مهمة في
هذه الحياة. كل الأحياء أجسادهم هي
مجرد "لباس عمل"، "وزرة" أما داخل اللباس
فنتساوى جميعاً: بشراً وأسوداً وداً لافين
وثعابين وورود أو أشجاراً...

لماذا ولدتماني
وأنتما مجرد قزمين؟
لماذا؟!...

ضرب القزم من البيت.

تحت فعل الغضب، لم ينتبه إلا بعد سنة من التيه في مدن البلاد وبواديها فوجد نفسه يمشي دون أن تلمس أصابع يديه الأرض فانحنى فوجد سروال الطويل قد ارتفع إلى مستوى الركبة وانتبه إلى جدعه فوجده قد تراجع عن طوله لفائدة أطرافه السفلى..

أبدو مختلفاً للغاية.. لا أصدق..
عجيب.. كيف حدث هذا؟؟ هل أنا أحلم؟
آه.. تذكرت.. إنها القاعدة التشكيلية، طولي سبعة كنوف ونصف.
رائع.. لقد أصبحت طويلاً، مرحى..
صديقي؟.. هل أنا قزم؟؟ كيف أبدو؟
هذه فكرة غبية..
نعم.. أنا طويل..
يالي.. أنا طويل.

الهجرة كانت الدواء
لقد صرت عظيما! أخيرا صرت عظيما
بماذا صرت عظيما؟!
بتغيري، بتطوري، دار فقالي سلمى التطور...
هل وضعت يدك على كنز نفيس؟
هل تزوجت سيدة ذات جاه؟
لا
لا
هل استطعت التسلق ورئاسة قبيلة أو جمعية أو منظمة أو حزب؟...
لا،
أنت، إذن، لا زلت قزما!
كلا، كنت قزما فيما مضى، أما الآن، فقد تطورت.
ستبقى قزما إلى حين انتزاعك مفتاحا من المفاتيح الثلاثة

ضاع الرجل بين الحارة تاركا إياه يفكر مرة أخرى أن لكل سلالة أقزامها و أن الأحجام ليست معيارا للعظمة. و بدأ يفكر في صخرة ثانية يصنع بعدها ملاكا لا يقارن بالبشر و لا يتخذهم مرجعا فيقطع بذلك الطريق أمام أو ضد العظمة إلى الأبد

ملاك! دفعة واحدة؟
يا حلاوة!.

يا صغيري، في هذه الدنيا ليس ثمة كائن مثالي كامل الأوصاف. الملائكة مخلوقات فردوسية. لن تقبل بالتخلي عن حياة النعيم الفردوسي والنزول إلى الأرض.

؟!

؟!

وماذا عن العصا؟
ألم تخرج من الجنة؟!

هو مجرد تساؤل.
ما بكم؟

؟؟

!؟!

الخروج من الجنة

أستاذ!...
أنا ابحث عن معلم القسم الأول؟
هو اليوم مكلف بالحراسة ...
أريد مقابلته.
الأمر يتعلق بتهاون ابنك.
إنهما، أستاذ، الحل بين أيديكم ...

العصا.
العصا هي الخلاص: العصا خرجت من الجنة ...
هل سبق لك أن درست؟
هي، يا سيدي، ليست آية أو حديثاً كما تخيّلت: العصا خرجت من الجنة. ففي جميع الكتب السماوية لها ترد "العصا" إلا في قصص موسى عليه السلام.
وهو لها يستخدمها أبداً ضد من عصاه من البشر، لقد شغلها مرتين: أمام جبروت السحرة ثم أمام صمت البحر.
هل المعلم يخالفني الرأي فعلاً؟ أم هو يعاتبني لعدم تحيته بما يليق بمقامه كمعلم درّسني في أولى سنواتي بهذه المدرسة؟...

كان نعم المعلم. لا يقبل التسامح مع المتهاونين ...

كان يصفنا أمام السبورة ويوزع على أكفنا بالتساوي والعدل اللازمين، ضربات موجعة بقضيب يتفنن المجتهدون من التلاميذ في شحذه وتلميعه كي يتسلوا بعويلنا بين الحصة والحصة.

لكن النتيجة تكون سريعة: فالمرة الموالية، يرتقي الجميع إلى مستوى المسؤولية..

ممم.. هذا أفضل..

أنا فقط ظننت من
باب التحية و التقدير
تذكيركم بفعالية الحكمة
التي كنتم ترددون ؛
العصا خرجت من
الجنة ...

أنا تلميذ سابق
عندكم في ذلك
القسم .
الطاولة الثالثة،
جهة النافذة.

حكمة !...

إن المؤسسة بإدارتها
وموظفيها وساحتها وضجيجها
... وكل شيء لازال كما كان منذ
الأزل. لكن الأمور على ما يبدو
قد تغيرت...

أنظر، أبي، إلى هذه الصورة على الجريدة...
أممم
البوليس يضربون الناس بالعصي.
ألا ترى في الصورة السابقة لها أن الناس هي البادية بـ الاحتجاج والفوضى في الشارع ؟...
والفوضى في البيت ؟
في البيت، يا بني، ليس هناك بوليس. الأب هو الذي يفرض النظام ويحافظ عليه...
وأنت يا أبي..
أنا، يا بني، إن عاقبتكم فلكي تصبحوا شرفاء مثلي ومثل أجدادكم. ف "العصا خرجت من الجنة".

أرجوكما

ما الذي خرج من الجنة ؟؟؟

آدم وحواء وثالثهما..

عصا..؟
..عصا؟..
ثالثهما
عصا
...

ألم أقل لكما
أن -العصا خرجت من
الجنة.-

نحن نسمي الثالث
شيطاناً..

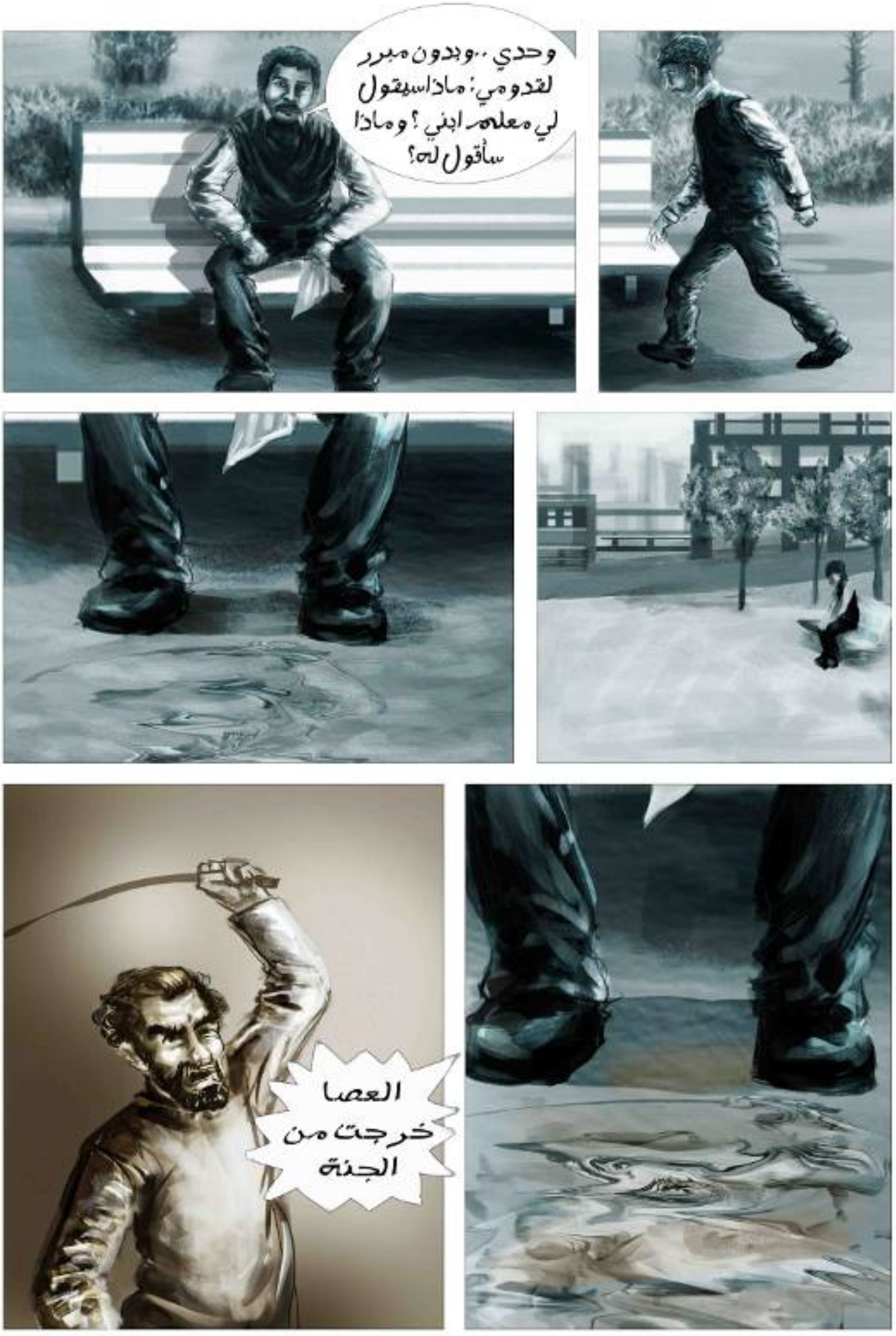
وحدي .. وبدون مبرر
لقدومي: ماذا سيقول
لي معلمي ابني ؟ وماذا
سأقول له؟
العصا
خرجت من
الجنة

العصا
خرجت من
الجنة
العصا
خرجت من
الجنة

العصا
العصا
العصا
العصا
العصا
العصا
العصا

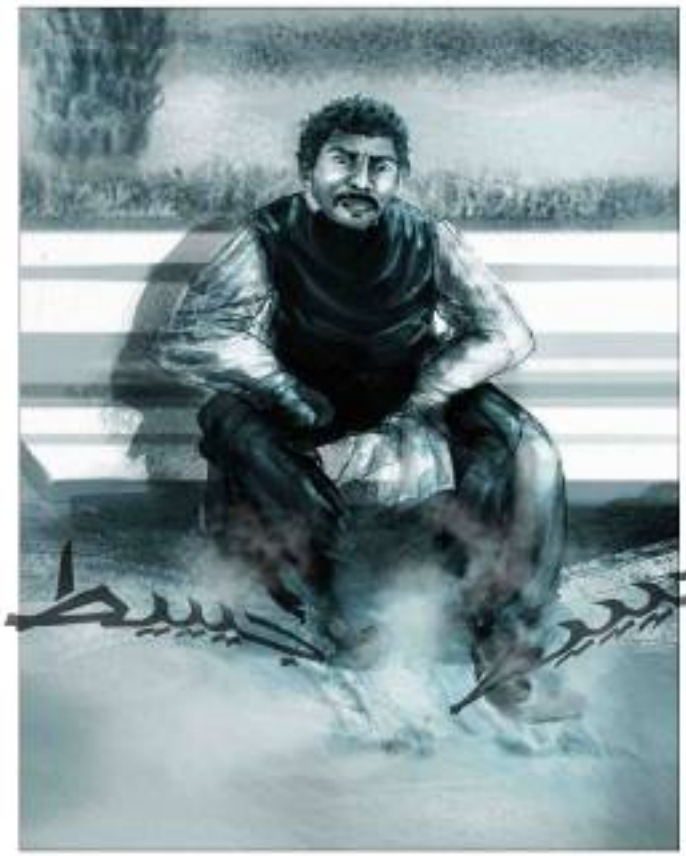

تشرین
تشرین
تشرین
تشرین
تشرین
تشرین

حكاياكم مليهة، يا أصدقائي. س
أنجز كتاباً للأشرطة المرسومة يخلد
للناشئة ما دار بيننا من كلام

سيكون الكتاب كتابنا
معاً. أنا أبدع النصوص
في رحم الورق

وأنت تمنحها بالصور
الحياة لتخرج إلى العالم
كما خرجنا من رحم
أمهاتنا.

وأنا على يقين بأن
مشروعنا المشترك
سيكون مثمراً.

"مدرسة السماء" مختلفة تماماً عن "مدرسة الأرض". مدرسة الأرض تجزيئية يقضي فيها الإنسان معظم حياته يجمع الأجزاء والتفاصيل ليفهم بعد مرور جيل من الزمن كيف تسير الأمور. أما مدرسة السماء فتنجب عصافير عارفة بمجرى الأمور وتبقى لهم فرصة الاستمتاع بالتفاصيل..

محمد سعيد الريحاني